العربية الذاكرة

مجلة ربع سنوية - العدد الثالث - أكتوبر ٢٠١٩

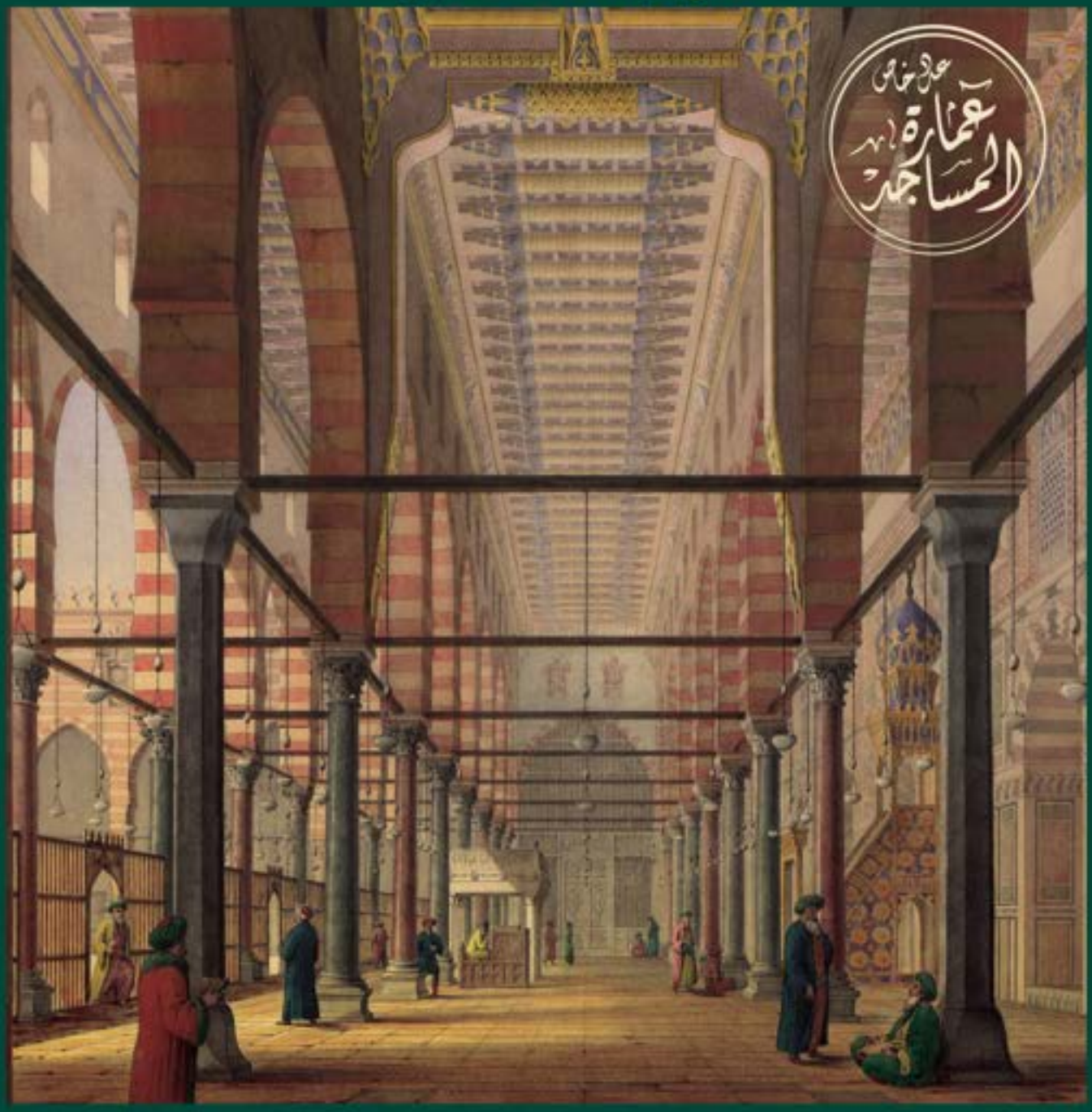

عدد خاص عن عمارة المساجد

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

من إصدارات مكتبة الإسكندرية

نفائس المخطوطات بمكتبة الإسكندرية

للحصول على مطبوعات مكتبة الإسكندرية؛ يُرجى الاتصال بمنفذ البيع:
تليفون: ٤٨٣٩٩٩٩ (٢٠٣)+ داخلي: ١٥٦٠–١٥٦٢
فاكس: ٤٨٢٠٤٧٦ (٢٠٣)+
البريد الإلكتروني: sales@bibalex.org

الفهرس

المساجد الجامعة وتطورها	٢
الجامع الأموي الكبير في مدينة دمشق	١٨
العمارة الدينية بمدينة سامراء	٤٤
الجامع الكبير بصنعاء	٥٤
هوامش وملاحظات حول المسجد الجامع بالقيروان	٦٢
مساجد مدينة فاس	٨٢
مساجد الموصل التاريخية	١٠٨
الآثار الإسلامية في الإسكندرية (المساجد العثمانية)	١١٦
المساجد التاريخية في المملكة العربية السعودية	١٢٤
مساجد موريتانيا	١٣٤
عمارة المساجد والمدارس في موسوعة «المزارات الإسلامية والآثار العربية في مصر والقاهرة المعزية»	١٧٤

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

الإشراف العام

أ . د . مُصْطَفى الفِقي

مدير مكتبة الإسكندرية

الهيئة الاستشارية

أ . د . أَيْمَن فُؤاد سَيّد

أ . د . أَشْرَف فَرّاج

د . مُحَمَّد الجَمَل

سكرتير التحرير

سُوزَان عَابِد

المراجعة والتصحيح اللغوي

فاطِمَة نَبيه

مُحَمَّد حَسَن

التصميم الجرافيكي والخطوط

الحَسَن عِصَام

خَالِد مُصْطَفى

الإسكندرية، أكتوبر ٢٠١٩

طُبعت برعاية

OFID
THE OPEC FUND FOR INTERNATIONAL DEVELOPMENT
Uniting against Poverty

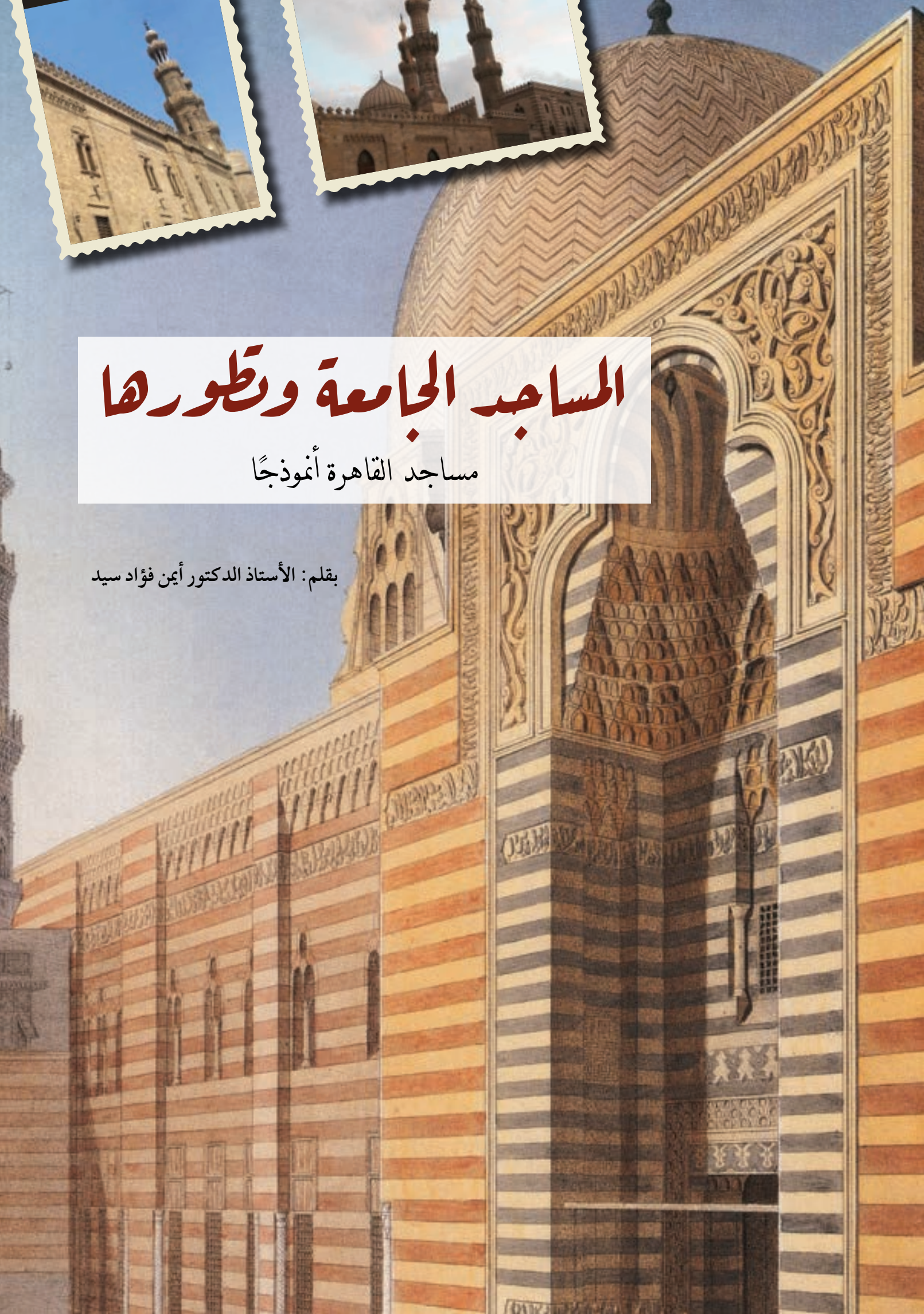

المساجد الجامعة وتطورها

مساجد القاهرة أنموذجًا

بقلم: الأستاذ الدكتور أيمن فؤاد سيد

لعل أهَمَّ ما يُمَيِّزُ المَدينَة الإسْلامية، ويُمَثِّلُ – مع دَار الإمَارَة والسُّوق والحَمَّام – النَّواةَ الرَّئيسَة لهذه المَـدينَة؛ «المَسْجدُ الجَامع» الذي كان عَادَةً يتَوَسَّطُ المَدينَة. و«المَسْجدُ» اسْمُ مَكان مُشْتَقٌّ من الفعْل «سَجَدَ»، أي مكان السُّجُود عند مُبَاشَرَة الصَّلاة.

وأهَمُّ ما يُمَـيِّـزُ «المَسَاجدَ الجَامعَة» هو وُجُودُ «المِنْبَر» الذي يَعْتَليه الخَطيبُ لإلْقَاء خُطْبَة الجُمُعَة، فيكون الفَرْقُ بين «الجَامع» و«المَسْجد» هو وُجُودُ المِنْبَر في الأوَّل. وفي القُرُون الإسْلاميَة الأولى، لم يكن يُوجَدُ في المَدينَة الإسْلامية سوى مَسْجد جَامع واحد تُؤَدَّى فيه صَلاةُ الجُمُعَة، بينما تَعَدَّدت مَسَاجدُ الأحْياء والخِطَط. ومع تنامي أهْل المَدينَة كانت تَتمُّ تَوْسعَةُ هذا الجَامع، أو إضَافَةُ زيادات إليه حَوْلَ جُدْرانه الخارجية – عَدَا ما وَرَاء جدار القِبْلَة – تُضاعفُ من مسَاحَته.

وعلى ذلك، كان بالفُسْطاط؛ العَاصمَة الإسْلامية الأولى في مصر، جَامعٌ واحدٌ هو «جَامعُ عَمْرو» أو «الجَامعُ العَتيق»، وبالعَسْكَر «جَامعُها» الذي ضَاعَ كُلُّ أثَر له الآن، وبالقَطَائع «جَامعُ ابن طُولُون»؛ الأثَـر الوَحيد الباقي من هذه المَدينَة الأميريَّة. وفي القاهرَة، كان «جَامعُ القاهرَة» – الذي عُرفَ فيما بعد بـ «الجَامع الأزْهَر» – هو جَامعُ المَدينَة الذي اسْتَمَرَّ إلى الآن باعْتباره «الجَامع الأعْظَم» أو «الجَامع الكبير» للقاهرة.

كان الأُنْـمُوذَجُ الذي خُطِّطَت على أسَاسه «المَسَاجدُ الجامعَة» بالأمْصَار، هو تَخْطيط «المَسْجد النَّـبَوي» بالمَدينَة المُـنَوَّرَة: صَحْنٌ أو فناءٌ أوْسَط يُحيطُ به ظُلَّةٌ أو عَدَدٌ من الظُّلَّات، اصْطُلحَ على تَسْميتها بالمُـقَدَّم والمُـؤَخَّر والمُجَنَّبَتَيْن. وكان كبَرُ المسَاحَة التي يَشْغَلُها المَسْجدُ أو صغَرُها مُرْتَبطًا بتعْداد أهالي المَنْطقَة التي شُيِّدَ فيها المَسْجدُ. وكانت تُضافُ إليه في بعض الأحْيان زياداتٌ حَوْلَ جُدْرانه الخارجية – عَدَا ما وَراءَ جدَار القِبْلَة – مثلما حَدَثَ مع جَامع ابن طُولُون. وكان الشَّكْلُ الخارجي للمَسْجد يتراوح بين الشَّكْل المُـرَبَّع والشَّكْل المُسْتَطيل. كذلك كان عَدَدُ أرْوقَته يختلف في ظُلَّة القِبْلَة (المُـقَدَّم) وفي الظُّلَّات الأخرى على جَوانب الصَّحْن الباقية، كما كان اتجاهُ صُفُوف الأعْمدَة أو البَائكَات التي تَفْصلُ بين الأرْوقة يختلفُ بين المُوَازاة للقِبْلَة أو التَّعامُد عليها.

واجهة جامع المُؤَيَّد شَيْخ المحمودي، عن باسكال كوست.

مئذنتا جامع المُؤَيَّد شَيْخ المحمودي على بدنتَي باب زَوِيلةَ، عن ديفيد روبرتس.

وفي مصر، لا نَعْرِفُ على وَجْه التَّدْقيق التَّخْطيطَ الأوَّل للـ«جَامع العَتيق»، ولكن من خلال وَصْف المُـؤَرِّخين له نَعْرِفُ أنَّ سَقْفَ الجَامع كان مَحْمُولًا على أعْمدَة قائمة على هَيْئَة صُفُوف، لكنَّنا لا نَدْري إنْ كانت هذه الصُّفُوفُ مُمْتَدَّةً بُموازَاة جدار المِحْراب أو كانت عَمُوديَّةً عليه، كذلك فإنَّنا لا نَعْلَمُ أكان الجَامعُ مَسْقُوفًا بأكمله، أم كان المَسْقُوفُ جزأه المُـقَدَّم فقط؟ وهل كان له صَحْنٌ تُحيطُ به الأرْوِقَةُ الأرْبَعَة أو كان مَسْقُوفًا كلّه؟

وأقْدَمُ المَساجِد الجَامعَة التي احْتَفَظَت بتَخْطيطها الأصْلي وتَفاصيلها المعمارية في مصر «جَامعُ أحمد بن طُولُون»، الذي بُنِيَ سنة ٢٦٥هـ/ ٨٧٩م على طِراز جَامع مدينة سَامَرَّاء (سُرَّ مَنْ رَأى) في العِراق مع مِئْذَنَته الفَريدَة. وأَصبح نظامُ هذا الجامع هو الأُنْـمُوذَج الذي أثَّـرَ فيما بعد في تَخْطيط وبناء المَساجد الجامعة ذات الأرْوِقَة في مصر الإسلامية حتى «جَامع المُؤَيَّد شَيْخ»، الذي بُدِئَ في بنائه سنة ٨١٨هـ/ ١٤١٥م، ويُعَدُّ آخِرَ هذه النوعية من المَساجِد في العَصْر المملوكي. ويُعَدُّ جَامعُ ابن طُولُون كذلك نُقْطَة تَحَوُّل مُهِمَّة في تاريخ العمارَة الإسلامية؛ لأنَّه بُنِيَ من مَوادّ جَديدَة تمامًا، وليس من أَسْلاب الكنائس والمعابد القَديمَة؛ حيث اسْتُخْدِمَ في بناء عُقُوده ودَعائمه الآجُر بَدَلًا من اسْتِخدام عَواميد الرُّخام؛ حتى يتمكَّن من مُقاوَمَة الحَريق.

منظر عام للمسجد النبوي الشريف.

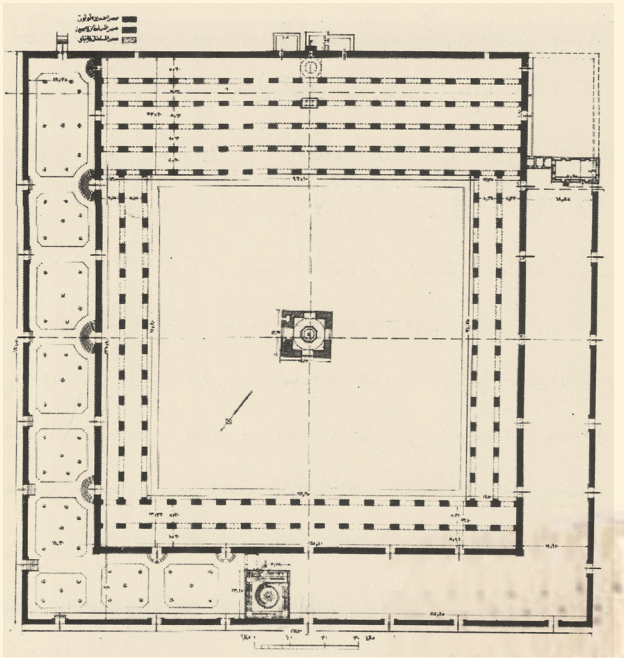

جامع أحمد بن طولون ومئذنته ومخططه.

ويُشْبِهُ التَّخْطيطُ الأصْلي لـ«جَامِع القاهِرَة» – الذي عُرِفَ فيما بعد بـ«الجَامِع الأزْهَر» – تَخْطيطَ جَامع ابن طُولُون، وتَخْطيطَ جَامِع المَهْدِيَّة؛ أوَّل جَامِع شَيَّدَه الفاطميُّون في شَمال إفريقيا. والجامِعُ الذي نَرَاهُ اليوم لَيس كلّه بالجَامِع الفاطِميّ الذي وضَعَ أسَاسَه القَائدُ جَوْهَر الصَّقْلَبِيّ سنة ٣٥٩هـ/ ٩٧٠م، بل هو مجموعةٌ من المباني ضُمَّت إليه في أزْمِنَة لاحقَة؛ هي من الغَرْب: الرِّواقُ العَبَّاسيّ، والمَدْرَسَةُ الطَّيْبَرْسِيَّة، ومَدْخَلُ قايتْباي، والمَدْرَسَةُ الأقْبُغاويَّة، ثم المَيْضَأةُ، والمَدْرَسَةُ الجَوْهَريّةُ، ثم جَميعُ الإيوان المُضَاف خَلْف المِحْراب الفاطميّ والذي أقَامَه – في القرن الثَّاني عَشَر الهجري/ الثَّامن عَشَر الميلاديّ – عبدُ الرَّحْمَن كَتْخُدا، الذي يُوجَد ضَريحُه في الجهة الجنوبية الغربية للجَامِع. ولم يَبْقَ من الجَامِع الفاطِميّ سوى المَجاز أو الرِّواق الأوْسَط المُـتَّجه إلى المِحْراب الفاطميّ وعُقُوده، وهي الجزءُ الوَحيدُ الباقي من العُقُودِ القديمة.

الجامع الأزهر.

جامع الحاكم بأمر الله ومئذنته.

أمَّا «جَامِعُ الحاكِم» – الذي يُعْرَف أيضًا بـ«الجَامِع الأنْوَر» – فيَجْمَعُ في تَخْطيطه بين عَناصِرَ إفريقيَّة وعناصِرَ مصريَّة؛ فتَخْطيطُ الجَامِع – بلا جِدَال – يُماثِلُ تَخْطيطَ جَامِع ابن طُولُون. ويَفْتَحُ مَدْخَلُ الجَامِع الرَّئيس في منتصف جِدارِ مُؤخَّر الجامِع في مَوْضِع يُقابلُ المِحْراب، وهو يَتَّفقُ في ذلك مع مَدْخَل جَامِع المَهْديَّة. ويَبْرُزُ المَدْخَلُ الرَّئيس خارِج سَمْت جِدارِ المُؤَخَّر، مُتَّخذًا هيئة بُرْجَيْن يتوسَّطهما مَمَرٌّ يُؤَدِّي إلى بابٍ، بحيث أصْبَحَ شَكْلُ المَدْخَل يُماثِلُ البَوَّابَة بالمعنى المُصْطَلَح عليه في عِمارَة الأسْوار، بينما كانت المَداخِلُ الرَّئيسة قَبْل ذلك تَفْتَحُ عادَةً في الجدارَيْن الجانبيين غير جدارَي القِبْلَة والمُؤَخَّر كما هو الحَالُ في جَامِع ابن طُولُون. وقد تَكَرَّرَ هذا الطِّرازُ في الجَامِع الأقْمَر ٥١٩هـ/ ١١٢٥م، وجَامِع الظَّاهِر بَيْبَرْس ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م، ولكن بأبْعاد مختلفة.

ومِئْذَنَتا هذا الجامع طِرازٌ فريدٌ بين المَآذن في مصر الإسلامية، وقد بُنِيَتا من الحجارَة: واحِدَةٌ في الرُّكْن الغربيّ الشَّماليّ، والأخرى في الرُّكْن الشَّماليّ الشَّرْقيّ، على شَكْل مِحْور أُسْطوانيّ تُحيطُ به كُتْلَةٌ مُرَبَّعةُ الشكل أُضِيفَت في مَطْلَع القرن الثامن الهجريّ / الرابع عَشَر الميلاديّ، ونجد أُنْمُوذَجًا متكرِّرًا لهذه المِئْذَنَة في مَدْرَسَة الصَّالح نَجْم الدِّين أيُّوب ٦٤١هـ/ ١٢٤٣م، وزَاوِيَة الهُنُود ٦٣٨هـ/ ١٢٥٠م، وخانْقاه بَيْبَرْس الجَاشَنْكير ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م، وهو الطِّرازُ الذي عُرِفَ باسْم «المَبْخَرَة». وتُمَثِّلُ الزَّخْرَفَةُ ذات الأشْكال الهَنْدَسيَّة والنَّباتية على قَاعِدَة هاتين المِئْذَنتين وعلى المَدْخَل الرَّئيس للجامِع، مَرْحَلَةً حاسِمَةً في شَكْل الزَّخْرَفَة الإسلامية.

المدخل التذكاري لجامع الحاكم بأمر الله.

ولم تَظْهَر الحجارَةُ في العمَارَة القاهرية الفَاطميَّة إلَّا عند بنَاء جَامع الحاكم، وبذلك أَصْبَحَ من الممكن الاسْتغْنَاءُ عن الاسْتعاضَة بالطِّلاء الجَصِّي في غطاء المُسَطَّحَات الجداريَّة وتَسْويَتها. وقد أضافَت الزَّخْرَفَةُ المنحوتَةُ على الحجارَة أهميَّةً إلى واجهات المساجد الفاطمية، وتَظْهَرُ بوُضُوح في الجَامع الأقْمَر، وجَامع الصَّالح طَلائع، وبعد ذلك في واجهَة المَدْرَسة الصَّالحية التي أُنْشئت في نهاية العَصْر الأيُّوبي.

ومُنْذُ بنَاء جَامع الحَاكم لَم يُبْنَ في القَاهرَة أيُّ مَسْجد، وكان أوَّلُ مَسْجد يُبْنى بعد ذلك هو «الجَامع الأقْمَر» الذي شُيِّدَ في آخر عام ٥١٥هـ/ ١١٢١م، وافْتُتحَ للصَّلاة في عام ٥١٩هـ/ ١١٢٥م في أيَّام الخَليفَة الآمر بأحْكام الله ووَزَارَة المأمُون بن البَطائحي، ويُعَدُّ أحَدَ أهمِّ آثار مصر الإسْلامية. ورَغْم صغر مسَاحَة هذا الجَامع فإنَّه يستمدُّ أهميَّته من واجهَته التي تَميَّزَت أوَّلًا بتوافُقها مع اسْتقامَة الطَّريق المُـقامَة عليه، بخلاف المَسْجد نفسه الذي احْتَفَظَ بتوجُّهه نحو القبْلَة؛ ثانيًا أنَّها أقْدَمُ واجهَة حَجَريَّة باقية في عَمائر القاهرَة عُني ببنائها وزَخْرَفَتها بسَخَاء، ولا تَقْتَصرُ هذه الزَّخْرَفَةُ على بَوَّابَتها فقط بل تَشْمَل واجهَة المَسْجد كلَّها، وهي واجهَةٌ كانت تَحْوي في الأصْل جَناحَيْن مُتماثلَيْن على يمين ويسار المَدْخَل البارز عن سَمْت الجدار تَظْهَرُ فيها أشْكالُ «المُـقَرْنَصَات» لأوَّل مَرَّة في عِمارَة القَاهرَة. وأمْلَى تَوافُقَ واجهَة الجَامع مع اسْتقامَة الطَّريق الوَضْعُ الخاصُّ للمنطقة التي تُحيطُ بمَوْقع الجامع، والتي فَرَضَت كذلك الزَّخْرَفَة الشَّاملَة الرَّائعَة للواجهَة نفسها، فقد كان الجَامعُ مُلاصقًا تمامًا للقَصْر الفاطمي الكبير لا يَفْصلُه عنه سوى مَمَرٍّ ضَيِّق، فأصْبَحَ بذلك في قَلْب الطُّقُوس الاحْتفالية للمَدينَة في العَصْر الفاطميّ المُـتأخِّر. ورَغْمَ أنَّه يُعْرَف في المَصَادر بـ«الجَامع» فلم يكن جَامعًا في الأصْل؛ لأنَّه - كما يَذْكر المقريزيّ - لم تكن به خُطْبَة.

وللأسَف الشَّديد، فإنَّه - باستثناء مئْذَنة جَامع الحاكم ومئْذَنة مَشْهَد الجُيُوشي أعلى المُـقَطَّم - لم تَبْقَ أيَّةُ مآذن تَرْجع إلى القَرْن الخامس الهجري/ الحادي عَشَر الميلادي، كما أنَّ المئْذَنة القائمة عند مَدْخَل الجَامع الأقْمَر فُقدَت واسْتُبْدلَت بأخرى من عَمَل يَلْبُغا السَّالمي في نهاية القرن الثَّامن الهجريّ/ الرَّابع عَشَر الميلاديّ. والمئْذَنَةُ الوَحيدَةُ الباقيةُ من هذا القَرْن هي مئْذَنَةُ أبي الغَضَنْفَر (زَاويَة سيدي مُعَاذ) الواقعة في نهاية شارع جَوْهَر القائد من الجهة الشرقية (أثر رقم ٣)، وهو مَسْجدٌ لم يذكره المَـقْريزيُّ في خطَطه.

والمُلاحَظُ على تَخْطيط الجَوامع الفَاطميَّة صغَرُ حَجْم الجَوامع التي شُيِّدَت في القرن السَّادس الهجري/ الثَّاني عَشَر الميلادي: «الجامع الأقْمَر»، و«الجامع الأفْخَر»، و«جَامع الصَّالح طَلائع» خارج بابِ زَويلَة، وكذلك اتِّساعُ أُسكُوب المِحْراب وبَلاطَته؛

وذلك لتَمْهيد قاعدَة مُربَّعَة للقُبَّة التي تُقامُ أَمامَ المحْراب على تَقاطُع أَسْكُوبه ببَلاطَته. وقد اسْتَوْجَبَت قاعدَةُ القُبَّة المُربَّعَة تساوي أَضْلاع هذه القاعدَة، وأَصْبَحَت بذلك عُنْصُرًا جَديدًا في تَخْطيط المساجد. وعَرَفَ العَصْرُ الفاطميّ كذلك ظُهُورَ المَساجد المُعَلَّقَة المَبْنيَّة فَوْقَ صَفٍّ دَكاكين وحَواصل، والتي يُمثِّلُها الجامعُ الأَقْمَر داخل المَدينَة، وجَامعُ الصَّالح طَلائع خارج المَدينَة الفاطمية في مُواجهَة باب زَويلَة.

وإذا كان عَدَدُ «المَساجد الجامعَة» التي شُيِّدَت في العَصْر الفاطميّ لا يَتَعَدَّى الخمسة جَوامع، فإنَّ عَدَدَ «مَساجد» الصَّلَوات الخَمْس، أي مَساجد الأَحْيَاء التي لا يُوجَد بها مِنْبَرٌ وبالتالي لا تُقَامُ بها الجُمَع، بَلَغَ عَدَدًا ضَخْمًا. يقول المُسَبِّحيُّ في حَوادث سنة ٤٠٣هـ/ ١٠١٢م: «وأَحْصَى أميرُ المُؤْمنين الحاكمُ بأَمْر الله المَساجدَ التي لا غَلَّةَ لها فكانت ثمان مائة وثلاثين مَسْجدًا، فأَطْلَقَ لها في كُلِّ شهر من بَيْت المال تسعة آلاف ومئتين وعشرين دِرْهمًا، على أنَّ لكلِّ مَسْجد في كُلِّ شهر اثني عشر دِرْهمًا». وذَكَرَ القُضَاعيُّ أنَّه كان بمصر الفُسْطاط من المَساجد ستة وثلاثون ألف مَسْجد، وهو رَقَمٌ غير واقعي – رَغْم أنَّه تَكَرَّر عند ياقُوت الحَمَوي والشَّريف الجَوَّاني وابن دُقْماق – ويبدو أنَّه سَقَطَ منه حَرْفُ «واو» قَبْل أَلْف، أَي أنَّ صَوابَه ١٠٣٦ مَسْجدًا(؟). وأَضَافَ المَقْريزيُّ أنَّ ابْنَ المُتَوَّج ذَكَرَ أنَّ عدَّة المساجد بمصر في زَمَنه – أي في النِّصف الأَوَّل للقرن الثامن الهجري / الرابع عَشَر الميلادي – أربع مئة وثمانون مَسْجدًا ذَكَرَها، بينما لم يَذْكر المَقْريزي في الفصَل الذي عَقَدَه لذِكْر المَساجد سوى اثنين وعشرين مَسْجدًا فقط.

منظر عام لجامع الصالح طلائع بن رُزِّيك خارج باب زَويلَة.

واجهة الجامع الأقمر بشارع المعز لدين الله.

وقد لَفَتَ ضَخَامَةُ عَدَد مَساجد الصَّلَوات الخَمْس في المُدُن الإسلامية المختلفة انْتباهَ العَديد من المُؤرِّخين والرَّحَّالَة. فاليَعْقُوبيّ - في نهاية القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي - يَذْكُر أنَّه كان ببَغْداد وَحْدَها ثلاثون ألف مَسْجد(؟) كما يَذْكُر الرَّحَّالَةُ الأنْدَلُسي ابن جُبَيْر الذي زَارَ الإسْكَنْدَرية في زَمَن صَلاح الدِّين، أنَّها أكثر بلاد الله مَسَاجدَ، وقَدَّرَ ما بها من المَساجد بين اثني عَشر ألف مسجد وثمانية آلاف مَسْجد، وهو أيضًا رقْمٌ مُبالَغٌ فيه. ولكن كثرة عدد هذه المساجد كان ظاهرةً واضحَةً حتى قال عنها القَلْقَشَنْدي إنَّها: «أكثر من أن تُحْصَى، وأعَزُّ من أنْ تُسْتَقْصَى». ويَدُلُّ هذا على أنَّه في القُرُون الإسلامية الأولى كانت جَميعُ الصَّلَوات تُؤدَّى في المَساجد، وأنَّ كُلَّ حَارَة أو خطَّة كان لها مَسْجدُها الخَاصّ الذي يجتمع فيه أهْلُ الحارَة أو الخطَّة لأدَاء الصَّلوات الخَمْس جَمَاعَةً.

وكان الأيُّوبيُّون - الذين خَلَفُوا الفَاطميين في حُكْم مصْر - شَافعيِيَّ المَذْهَب، وهو مَذْهَبٌ يرى امْتناعَ إقَامَة خُطْبَتَيْن للجُمُعَة في بَلَد (مَدينَة) واحد، فأفْتَى القاضي صَدْرُ الدِّين عبدُ الملك بن درْبَاس الماراني؛ قاضي القُضَاة الشَّافعي، للسُّلْطَان النَّاصر صَلاح الدِّين يُوسُف بن أيُّوب؛ مؤسِّس الدَّوْلة الأيُّوبيَّة، بإبْطال الخُطْبَة من الجَامع الأزْهَر؛ رَمْز الدَّعْوَة الإسْماعيلية، وإقْرارها بالجَامع الحاكمي شَمال المَدينَة الفاطميَّة من أجْل أنَّه أوْسَع. واسْتَمَرّ الأمْرُ كذلك نحو مئة عام إلى أنْ أعَادَها إليه السُّلْطانُ المَمْلُوكي الظَّاهرُ بَيْبَرْس سنة ٦٦٥هـ/ ١٢٦٤م. كما أنَّنَا لم نَعْثُر على أيَّة كتابات أثرية أيُّوبيَّة تُفيدُ بتَرْميم الأيُّوبيين أو صيَانَتهم لجامعي عَمْرو وابن طُولُون بمصر الفُسْطاط.

وعلى ذلك، فمن الطَّبيعيّ أنْ لا يَسْتَجدَّ الأيُّوبيُّون مَسَاجدَ جَامعَة بالقاهرَة، ولكنَّهم أدْخَلوا إلى مصر نَمَطًا آخَرَ من المُؤَسَّسات الدِّينية هو «المَدْرَسَة» التي بَلَغَ عَدَدُ ما أُنْشئ منها بالقاهرَة والفُسْطاط في العَصْر الأيُّوبيّ اثنتين وعشرين مَدْرسَةً، وإنْ كان صَاحبُ كتاب «تاريخ بَطاركَة كَنيسَة الإسْكَنْدَرية» قد ذَكَرَ أنَّ السُّلْطانَ الصَّالحَ نَجْم الدِّين أيُّوب؛ آخر سلاطين الأيُّوبيين بمصر، «أخْرَجَ مالًا جَزيلًا وسَلَّمَه للفقيه بَهَاء الدِّين بن الجُمَّيْزي برَسْم مَرَمَّة المَساجد التي بالقاهرَة ومصر المَحْروستين وما بينهما، واهْتَمَّ بها، عُمِّرَت أحْسَنَ عمارَة، وبُيِّضَت، ونُقشَ على أبْوابها اسم المَوْلَى السُّلْطان الملك الصَّالح أيُّوب وتأريخ تَجْديدها وعمارَتها، وهو سنة ثمان وثلاثين وستّ مئة».

وكان أوَّلُ مَسْجدٍ جَامع يُبْنى في القاهرَة منذ سُقُوط الفاطميين، سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧٢م، هو «جَامع الظَّاهر بَيْبَرْس»؛ المُؤَسِّس الحَقيقي لدَوْلَة سَلاطين المَماليك في مصْر، بالحُسَيْنيَّة خارج باب الفُتُوح سنة ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م. ومَرَّةً أخرى نَجدُ أنَّ تَخْطيطَ هذا الجَامع - الذي يُعَدُّ من أكبر جَوامع القاهرَة مسَاحَةً؛ لأنَّه شُيِّدَ في منطقة خالية لم يُسْبق إعْمارُها خارج أسْوار المَدينَة الشمالية - يُماثلُ تَخْطيط «جَامع الحَاكم»، مع مَدْخَله التِّذكاري البارز عن سَمْت جدار المُؤَخَّر، ولكن في هذه المرَّة بأبْعاد ضخمة ١١,٨٣ مترًا × ٨,٨٦ أمتار، ويُزَيّن واجهَتَي المَدْخَل الجانبيتين ثلاثُ حنْيات مستطيلة يعلوها عَقْدٌ مُنْكسر، بينما لم يُوجَد سوى عَقْدَيْن في جَامع الحاكم، وعَقْد واحد في جَامع المَهْديَّة. وامْتازَ جَامعُ الظَّاهر بمَدْخَلَيْن تذْكاريين آخريْن، يتوسَّط أحَدُهُما الضِّلْعَ البَحْريّ والثَّاني الضِّلْعَ الجنوبيّ، ولكن بأبْعاد أقَلّ، يُؤدِّيان إلى صَحْن الجَامع فقط، بسبب كبَر مسَاحَته ولتَيْسير الدُّخُول إليه.

ويُحيطُ بالصَّحْن الأوْسَط للجَامع أربعةُ أرْوقَة، يحتوي رواقُ القبْلَة منها على ست بَوائك، والرِّوَاقان البَحْريّ والجنوبيّ على ثلاث بَوائك، بينما يحتوي الرِّواقُ الغربيّ على بائكتين فقط. وترتكزُ جَميعُ بَوائك الجامع المُطلَّة على الصَّحْن، مثل جَامعي ابن طُولُون والحاكم، على دَعائم، كما ترتكزُ بائكتان من بَوائك رواق القبْلَة السِّتّ على دَعائم، وترتكز أيضًا جَميعُ المجازات التي تَتَوسَّطُ بَوائك الأضْلاع الأربع - والتي تُؤَدّي ثلاثٌ منها إلى المَداخل الخارجية الثَّلاثة للجامع - على دَعائم.

ولعَلَّ أهَمَّ ما يُمَيِّزُ جَامع الظَّاهر هو احْتواؤه على مَقْصُورَة تَتَقدَّم المحْراب، وتَشْغَلُ تسعة أرْوقَة، يتكوَّن كُلُّ ضلْع من أضْلاعها الثَّلاثَة من ثَلاثَة عُقُود، وتبْلُغُ مساحتها ١٥,٥ مترًا مُرَبَّعًا. ويَتوسَّط الضِّلْع الرَّابع من المَقْصُورَة محْرابٌ كبيرٌ مُجَوَّفٌ، على جانبيه حنْيتان مُسَطَّحَتان يعلوهما نافذَتان، وكانت المَقْصُورَةُ في الأصْل مُغَطَّاة بقُبَّة من الآجُرّ ضَاعَت الآن.

ورَغْم أنَّ المَدارسَ ذات الأوَاوين أصْبَحَت هي الطَّابَع المُمَيَّز للعمارَة الدِّينية منذ العَصْر الأيُّوبي، فقد اسْتَمَرَّ مع ذلك بنَاءُ الجَوامع ذات الأرْوقَة في دَوْلَة المماليك البَحْرية، وصَدْر دَوْلَة المماليك الشَّراكسَة في القرن الثامن الهجريّ/ الرابع عَشَر الميلاديّ. وجَميعُ هذه الجَوامع - فيما عَدَا ما شَيَّدَه النَّاصرُ محمد بن قَلاوُون: الجامع النَّاصريّ الجَديد ٧١٢هـ/ ١٣١٢م، وجَامع القَلْعَة ٧١٨هـ/ ١٣١٨م - بَنَاهَا كبارُ الأُمَرَاء المماليك لا السَّلاطين، ووُجدَت في شَوارع المَدينَة الرَّئيسَة، جَنُوب وجَنُوب شَرْقي السُّور الجنوبيّ للمَدينة الفاطمية والمُؤدِّية إلى قَلْعَة الجَبَل (الدَّرْب الأحْمَر والتَّبَّانَة والصَّليبَة)، وهي: جَامعُ قُوصُون ٧٣٠هـ/ ١٣٣٠م، وجَامعُ أُلْماس ٧٣٠هـ/ ١٣٣٠م، وجَامعُ بَشْتاك ٧٣٥هـ/ ١٣٣٥م، وجَامعُ أَلْطَنْبُغَا المارْديني (المارْداني) ٧٣٩هـ/ ١٣٤٠م، وجَامعُ أصْلَم البَهائي ٧٤٥هـ/ ١٣٤٤م داخل الباب المَحْرُوق، وجَامعُ آقْسُنْقُر ٧٤٧هـ/ ١٣٤٦م، ثم جَامعُ شَيْخُو ٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م، إضَافَة إلى جَامع آل مَلك الجُوكَنْدار بالحُسَيْنيَّة ٧١٩هـ/ ١٣١٩م، وجَامع الخَطيري

ببُولاق ٧٣٧هـ/ ١٣٣٧م؛ أمَّا آخرُ الجَوامع المملوكية ذات الأرْوِقَة فهو من بنَاء السَّلاطين، وهو «جَامعُ المُؤَيَّد» الذي شَيَّدَه السُّلْطَانُ المُؤَيَّدُ شَيْخ المَحْمُودي سنة ٨١٨هـ/ ١٤١٥م داخل باب زَويلَة، على نَمَط المَسَاجد ذَات الصَّحْن والأرْوِقَة، والتي بَدَأت مع جَامع ابن طُولُون، واسْتَمَرَّت مع جَوَامع الأزْهَر والحَاكم والأقْمَر والصَّالح طَلائع والظَّاهر بَيْبَرْس.

وجَاءَت جَميعُ هذه الجَوامع - بنسَب مُتفاوتة - أقَلَّ بكثير من مسَاحة «جَامع الظَّاهر بَيْبَرْس»؛ أوَّل الجَوامع المملوكية، باسْتثْناء الجَامع النَّاصري الجَديد شمال الفُسْطاط الذي ضَاعَ كُلُّ أثَر له الآن. ويَرْجعُ ذلك إلى تَعَدُّد المَساجد الجامعَة في المَدينَة وظَوَاهرها، فانْتَفَت معه الحاجَةُ إلى بنَاء مَسَاجدَ جَامعَة فَسيحَة. وجَاءَت كذلك وَاجهاتُ جَميع هذه الجَوامع دائمًا مُوازيةً لخَطِّ تَنْظيم الطَّريق الذي أُقيمت عليه. وإذا نَتَجَ عن ذلك خلافٌ في توْجيه القبْلَة فإنَّ الفَرْقَ يُسْتعاضُ عنه بانْحراف المُخَطَّط الدَّاخلي، كما أنَّ أحَدًا من هذه الجَوامع لم يُسْتَخْدَم قط كقُبَّة ضَريحيَّة. ولكن الذي يَجْمَع بين جَميع جَوامع القاهرَة ذات الأرْوِقَة، هو اتِّسَاعُ مُسَطَّح صَحْن هذه الجَوامع بالنِّسْبَة للمُسَطَّح المُغَطَّى، وسنلاحظ تَكْرار هذه الظَّاهرَة كذلك مع المَدارس المملوكية.

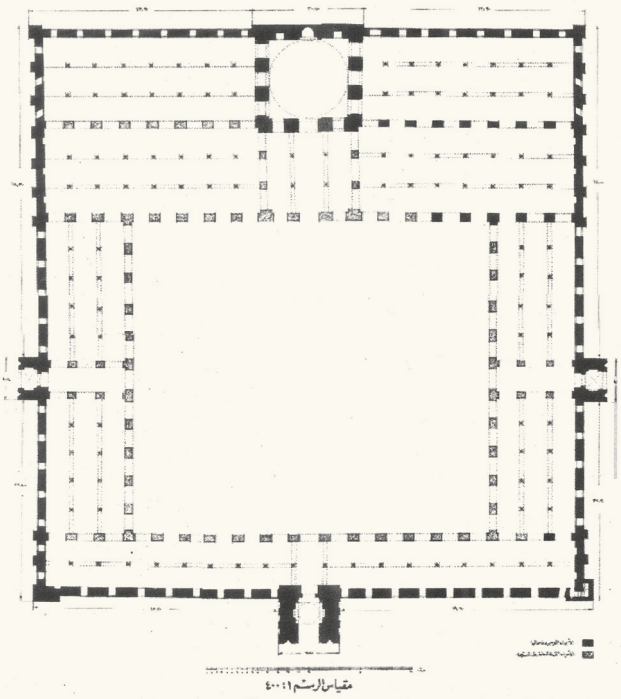

جامع الظاهر بَيْبَرس ومخططه.

واعْتبَارًا من عَصْر السُّلْطان حَسَن (٧٥٥-٧٦٢هـ/ ١٣٥٤-١٣٦٤م)، ازْدَادَتْ أَهميَّةُ المَسَاجد وإنْ أصْبَحَت أقَلَّ عَدَدًا. وعندما تكون هذه المَسَاجدُ من إنْشَاء السَّلاطين، فغَالبًا ما تكونُ جُزْءًا من مَجْمُوعَة أثَريَّة أكْبَر، وهو ما يَعْكسُه تَنَوُّع المُصْطَلَحَات المُسْتَخْدَمَة في المَصَادر الأدَبيَّة. فوَقْفيَّةُ السُّلْطان حَسَن تَصفُ مَسْجدَه بـ«المَسْجد الجَامع والمَدَارس»، بينما يَصفُه المَقْريزيُّ مَرَّةً بالمَدْرَسَة ومَرَّةً بالجَامع. وهو من حَيْثُ التَّخْطيط، ذو تَخْطيط مُتَعَامد Cruciform لتَدْريس المَذَاهب الفقْهيَّة الأرْبَعَة، ولكنَّ إيْوَانَ القبْلَة به منْبَرٌ من الرُّخَام ومحْرَابٌ ضَخْم، الأمْرُ الذي يَدُلُّ على تَدَاخُل صفَة المَدْرَسَة والمَسْجد الجَامع في البنَاء. ويَحْتَلُّ هذا الجَامع مَكانَةً مُتَميِّزَةً، ليس فقَط في العمَارَة الإسْلامية القَاهريَّة، ولكن في كلِّ العَالَم الإسْلاميّ بحَجْمه ومسَاحَته وارْتفَاعه وفُنُونه وزَخْرَفَته المُتَميِّزَة. وقد اسْتَفَادَ من تَخْطيطه السُّلْطانُ المُؤَيَّد شَيْخ عند تَشْييده لجَامعه؛ حيث أقَامَ مئْذَنَتَيْن مُتَشَابهَتَين له فوق بُرْجَي باب زَويلَة، كما اسْتَعَارَ بَابَه الضَّخْم المُكَفَّت بالبُرُونْز ليَجْعَلَه على مَدْخَل جَامعه.

وجَاءَت سَائرُ المَنْشَآت الدِّينيَّة المَمْلُوكية البَحْرية أو البُرْجيَّة على نَمَط تَخْطيط المَدَارس، كما كانت بأحْجَام مُتَواضعَة بالقيَاس إلى جَامع ومَدْرَسَة السُّلْطَان حَسَن وجَامع المُؤَيَّد شَيْخ.

وإذا ما انتقلنا إلى العَصْر العُثْماني فسنجد أنَّ المَسَاجدَ كانت أحد أهَمّ المُنْشَآت الدِّينية التي أقَامَهَا العُثْمَانيُّون في القَاهرَة. ويَبْلُغُ عَدَدُ المَسَاجد العُثْمَانيَّة المَوْجُودَة بالقَاهرَة، والتي تَحْتَفظُ إلى

جامع ومدرسة السلطان حسن بميدان الرُّمَيْلَة.

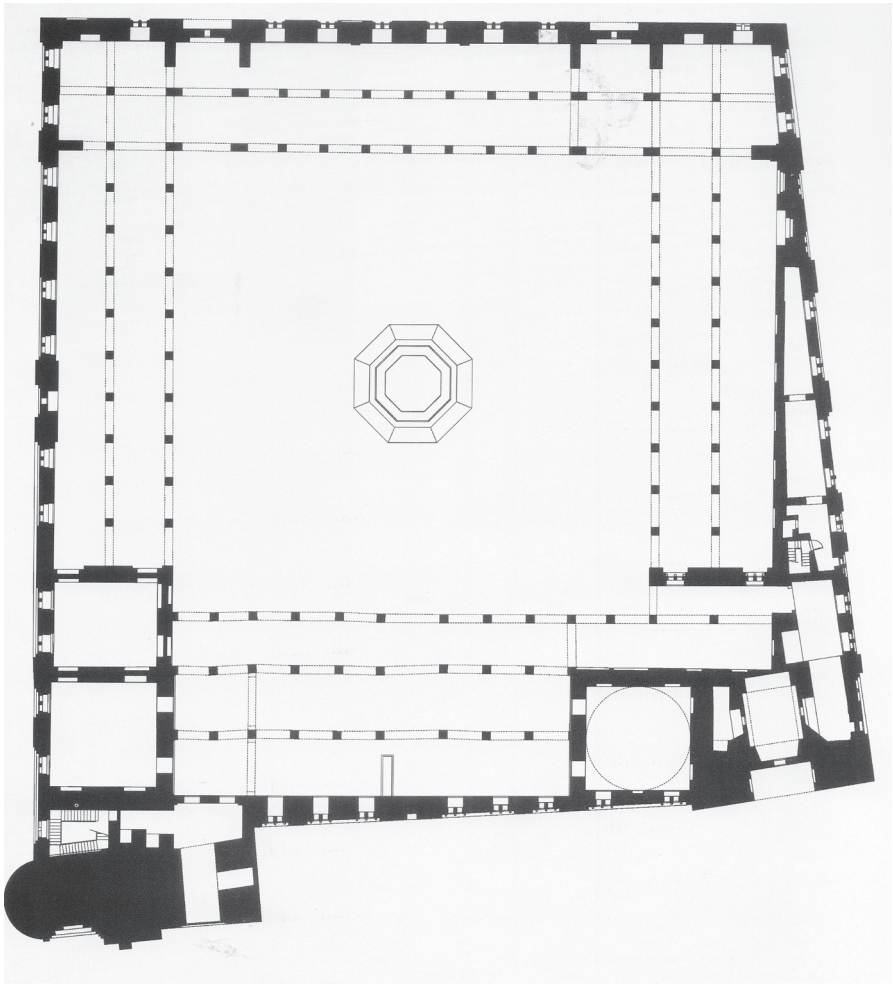

صحن جامع المُؤَيَّد شَيْخ المحمودي داخل باب زَوِيلةَ ومخططه.

الآن بحَالتها الأصْليَّة؛ نحو خَمْسَة وثلاثين مَسْجدًا، منها تسْعَة وعشْرُون مَسْجدًا بُنيَت وَفْق الطِّراز المَمْلُوكيّ في عمَارَة المَسَاجد، وستَّة مَسَاجد بُنيَت وَفْق الطِّراز العُثْمَانيّ، مع مُلاحَظَة أنَّ أَهَمَّ تَغْيير طَرَأ على هذه المَسَاجد كان في تَصْميم مآذنها فقط؛ حيث أصْبَحَ الشَّكْلُ السَّائدُ هو أُنْمُوذَج المئْذَنَة العُثْمانية الأسْطُوانية ذات القمَّة المَخْرُوطية المُدَبَّبَة، وكانت أوَّلًا ذات شُرْفَتَيْن، ثم سَادَ بعد ذلك شَكْلُ المئْذَنَة ذات الشُّرْفَة الوَاحدَة.

ومن أمْثلَة المَـآذن التي الْتَزَمَت بالطِّراز المَمْلوكيّ: جَامع مُصْطَفَى جُورْبَجي ميرْزَة ببُولاق ١١١٠هـ/ ١٦٩٨م، وجَامع الأمير عُثمَان كَتْخُدا المعروف بجَامع الكخْيا (نَاصيَة شارعي قَصْر النِّيل والجُمهوريَّة) ١١٤٧هـ/ ١٧٣٤م، وجَامع الكُرْدي بسُوَيْقَة اللَّالا ١١٣٦هـ/ ١٧٢٣م، وجَامع مَسيح باشا بالخَليفَة ٩٨٣هـ/ ١٥٧٥م، وجَامع آلتي بَرْمَق باليَكَنيَّة الجَديدَة (قبل ١٠٣٣هـ/ ١٦٢٣م)، وجَامع المَحْمُوديَّة بمَيْدَان القَلْعَة ٩٧٥هـ/ ١٥٦٧م، وجَامع يُوسُف الحين ببَاب الخَلْق ١٠٣٥هـ/ ١٦٢٥م.

وتَخَلَّت العمَارَةُ العُثْمانيَّةُ عن طِرَاز بنَاء المَدْرَسَة الذي دَخَلَ إلى القاهرَة مع صَلاح الدِّين وشَهدَ تَطَوُّرًا كبيرًا في العَصْر المملُوكي البَحْري، ثم أخَذَ تَصْميمُه في التَّغَيُّر من الشَّكْل المُتَعامد Cruciform إلى شَكْل المَسَاجد الجامعَة ذات الأرْوقَة. وعَدَلَ المُهَنْدسُون العُثْمانيُّون كذلك عن هذا التَّخْطيط بإدْخَال نَمَط القباب البيزَنْطيَّة، الذي يُميِّز عمارَة المَسَاجد العُثْمانيَّة في إسْتَانْبول والأناضُول، واسْتخْدَام القَرْميد في البنَاء. ومن أمْثلَة المَسَاجد التي أدْخَلَت الطِّرَازَ العُثْمانيّ إلى القَاهرَة: جَامعُ سُلَيْمان بَاشَا الخَادم بالقَلْعَة المَعْروف بجَامع سَاريَة الجَبَل ٩٣٥هـ/ ١٥٢٨م، وجَامع سنَان باشا ببُولاق ٩٧٩هـ/ ١٥٧١م، ثم جَامع الملكة صَفيَّة (زَوْجَة السُّلْطان مُرَاد الثَّالث) بالدَّاوديَّة بالدَّرْب الأحْمَر ١٠١٩هـ/ ١٦٠١م، يُضَافُ إليها جَامعُ محمَّد بك أبي الذَّهَب

جامع سليمان باشا بالقلعة.

الموجود الآن في مَيْدَان الأزْهَر ١١٨٨هـ/ ١٧٧٤م. وتُمثِّل هذه الجَوَامع الثَّلاثَة الطِّرَازَ العُثْمَانيّ بوُضُوح، وعلى الأخَصّ فيما يتَعَلَّق بالقبَاب والمآذن وبَيْت الصَّلاة.

ويُعَدُّ «جَامعُ محمد علي باشا»، الذي أقَامَه مَوْضعَ الإيوَان الكَبير (ديوَان يُوسُف) بالقَلْعَة، أهَمَّ مَباني القَلْعَة، ويُعَدُّ حلْيَتَها الرَّئيسَة. وهو جَامعٌ مستوحًى من طِرَاز جَوَامع إسْتانْبُول، وعلى

جامع محمد بك أبي الذهب بميدان الأزهر.

الأخَصّ جَامِع السُّلْطان أحمد، أشْرَفَ على تَشْييده مُهَنْدِسٌ أرْمَنِيّ مجهول الاسْم، وتَمَّ افْتتاحُه عام ١٢٤٩هـ/ ١٨٣٣م، لكنّ بناءَه لم يكتمل إلَّا في عام ١٢٧٤هـ/ ١٨٥٧م.

ويَبْدُو للوَهْلَة الأولى أنَّ تَصْميمَ هذا الجَامِع غَريبٌ على نَمَط جَوَامِع القَاهِرَة، وهو طِرازٌ لم يتكرَّر بعد ذلك. وربَّما أرادَ محمد علي بتَشْييد جَامعه على هذا الطِّرَاز مُنافَسَة السَّلاطين العُثْمانيين. ومع ذلك، فإنَّ المَنْظَرَ العام لهذا الجَامِع، بسَبَب كُتْلته ومآذنه المَمْشُوقَة الشَّاهقَة، أصْبَح جزءًا لا يَتَجزَّأ من مَنْظَرِ القَاهِرَة، بل إنَّه أصْبَح دَليلًا على القَلْعَة.

وإذا كان جَامِعُ محمد علي باشا بالقَلْعَة يُمثِّلُ نَمَطًا مُتَفَرِّدًا في عِمَارَة المَسَاجِد في مصر؛ حَيْث نَقَلَ إلى مصر الطِّرَازَ العُثْماني في بِنَاء المَسَاجِد المُسْتَخْدَم في إستانْبُول والأناضُول دون تَغْيير؛ فإنَّ بِنَاءَ «جَامِع الرِّفاعي» المَوَاجه لجَامِع ومَدْرَسَة السُّلْطان حَسَن بمَيْدَان الرُّمَيْلَة أسْفَل القَلْعَة، يُمَثِّلُ تَخْطيطُه الدَّاخلي مَزْجًا بين عِمَارَة المَسَاجد المملوكية والمَسَاجد العُثْمانية. وقد أغْرَى جَامِعُ السُّلْطان حَسَن بضَخَامَته المُهَنْدِسَ الذي وَضَعَ تَصْميمَ جَامِع الرِّفاعي بمُجَارَاته في العَظَمَة والارْتفاع، بحَيْث أصْبَح من أهَمِّ الجَوَامِع التي اكْتَمَلَ بناؤها في مَطْلَع القَرْن العشرين، وأحْفَلها زُخْرُفًا، وأتْقَنها صنَاعَةً، وهو آخِر المَسَاجِد التي اسْتُخْدِمَت الحِجَارَةُ في بنائها بالكامل.

وأمَرَت ببِنَاء هذا الجَامِع خُوشْيار هانم؛ وَالِدَة الخديوي إسْماعيل، سنة ١٢٨٦هـ/ ١٨٦٩م، ليكون جَامِعًا كبيرًا في مَوْضِع زَاوِيَة الرِّفاعي التي نُسِبَ إليها الجامعُ وعُرِفَ بها، على أن يُلْصَقَ به مَدَافِنُ لها ولأُسْرَتها وقُبَّتان للشَّيْخَيْن علي أبي شبَّاك ويحيى الأنْصَاري المَدْفُونين بالزَّاوية. وتَطَلَّبَت تَعْديلات أُدْخِلَت على تَخْطيط الجَامِع إلى تَوَقُّف العَمَل به سنة ١٢٩٨هـ/ ١٨٨٠م، ثم جَاءَت وَفاةُ المُنْشئَة سنة ١٣٠٣هـ/ ١٨٨٥م، لتُطيل من أمَد هذا التَّوَقُّف نحو رُبْع قَرْن، إلى أنْ عَهِدَ الخديوي عبَّاس حِلْمي الثَّاني سنة ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م إلى أحمد خيري باشا؛ ناظِر الأوْقاف الخُصُوصيَّة، بإتْمام بِنَاء الجامِع، فكَلَّفَ ماكس هرتس باشا Max Herz Pacha ؛ باشْمُهَنْدِس الآثار العربية، بإعْدَاد مَشْرُوع جديد لإصْلاح الجامِع وإكمال بِنَائه، فافْتُتِح لصَلاة الجُمُعَة في غُرَّة المحرَّم سنة ١٣٣٠هـ/ ٢٢ ديسمبر سنة ١٩١١م.

واسْتَمَرَّ تَبَنِّي هذا الطِّراز في العَديد من المَسَاجِد التي وَضَعَ تَصْميمها ماريو روسي Mario Rossi؛ كبير مهندسي وزارة الأوْقَاف بين سنتي ١٩٢٩م و١٩٥٥م، مثل جَامِع عُمَر مكرم بمَيْدَان التَّحْرير، وجَامِع الزَّمالك، وجَامِع الطَّبَّاخ بجِوار قَصْر عابدين، وجَامِع صَلاح الدِّين بالمَنْيل.

وشَهِدَ العَقْدان الأخيران من القرن العِشْرين تَشييد بعض المَسَاجِد الضَّخْمَة، مثل جَامِع الفَتْح بمَيْدَان رَمْسيس، وجَامِع النُّور بمَيْدَان العباسيَّة، وجامِع الرَّحْمَن الرَّحيم بطريق صَلاح سالم، إضَافَةً إلى جَامِع الفَتَّاح العَليم الذي أُنْشئ أخيرًا بالعاصِمَة الإدَارِيَّة الجَديدَة.

جامع القلعة، وجامع محمد علي باشا.

جامع محمد علي باشا بالقلعة.

جامع الرفاعي بميدان الرُّمَيْلَة.

من إصدارات مكتبة الإسكندرية

أبحاث المؤتمر الدولي

الحضارة الإسلامية في الأندلس